



يبدأ الشيطان محاولاً صرف المؤمن عن سبيل ربه، ويستحدث له الطرق والأساليب والوسائل والأفكار التي تلهيه عن الصراط السوي، وأكثر ذلك أن يلهيه عن التوبة والاستغفار.

فتارة يثقلها عليه، ويوسوس له بأنها عمل صعب ثقيل، وأنه لن يقدر عليه لأنه يحتاج جهداً واجتهاً.

وتارة يصعب التوبة عليه من باب أن ذنبه أثقل من أن تغفر، وأن معاصيه أكثر من أن يتوب منها ...

وتارة أخرى يبيسه من قبول تلك التوبة، لأنها غير مخلصة وغير نقية، وأنه مدين بالآثام ..

ولو لم تجد أمامه تلك الطرق وسوس له صارفاً له عن الاستغفار والتوبة بكونه كثيراً ما يستغفر ثم يعود، وأنه بذلك يخادع ربها، وأنه يجب أن يتوقف عن ذلك ... !

كل ذلك من كيد الشيطان، وكل ذلك ينبغي ألا يفت في عضد المؤمن، ويجب أن يتفطن المؤمن إليه، فطريق التائبين ليس مجرد كلمة تقال بل إيجابية وعمل ونية صالحة وإرادة قوية وعزّم أكيد يصحب تلك التوبة وذلك الاستغفار .

قبل للحسن بن علي: ألا يستحب أحدنا من ربه يستغفر من ذنبه ثم يعود ثم يكرر الذنب ؟! فقال: ود الشيطان لو ظفر منكم بهذا، فلا تملوا من الاستغفار

إنها أمنية الشيطان، أن يظفر من المؤمن بذلك، فيقنعه بأن يتوقف عن الاستغفار بحجة أو بأخرى، خصوصاً تلك الحجة التي هي من طبيعةبني آدم، كونهم يعاودون الذنب بعد الاستغفار منها .

هي أمنية الشيطان، ويجب علينا أن نعمل على دحض تلك الأمنية بكل سبيل.

كثير من المؤمنين يقعون في تلك المصيدة الشيطانية، مصيدة اليأس، فيقعون صيداً سهلاً للشيطان، وعندئذ تتضاعف معاصيهم، وتهون عليهم الكبائر خطوة خطوة، وكلما سقطوا سقطة زاد ولوغهم في الإثم، وزاد بعدهم عن التوبة، ذلك لأنهم اقتنعوا بأن الاستغفار لا ينبغي لمن عاد للذنب بعد التوبة منه فكرره وأدمنه..!

النفس الإنسانية صعبة المراس، نعم، لكنها ممكناً القياد أيضاً إذا عرفنا دواعها، ودواؤها هنا أن نربيها على الثواب ونرسيخ بداخلها المعاني باعتبارها رواسخ لا تتزعزع ، ثم ندفعها للبدء في التطبيق ، ولا نتركها لتتراء في التنفيذ .

أما الثابت هنا فهو أن من طبيعة الإنسان الخطأ والضعف والسقوط في الإثم ، وأن الله سبحانه علم ذلك من بنى آدم فقبل منهم التوبة مراراً وتكراراً ، ووعدهم بألا يقظوا ولا يأسوا مادامت فيهم حياة .

قال الله سبحانه : " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم "

وفي الحديث القدسي الصحيح : (من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غرفت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئاً) الطبراني - صحيح الجامع

وانظر إلى جميل عفوه سبحانه وواسع مغفرته سبحانه كما في الحديث القدسي العظيم: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غرفت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنبك عنان السماء ثم استغفرتني غرفت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقرب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقربها مغفرة) أخرجه الترمذى

وانظر إلى فعل التوبة الصادقة في الذنوب، كما ي قوله صلى الله عليه وسلم: (النائب من الذنب كمن لا ذنب له) أخرجه ابن ماجه وحسن الألباني

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من رجل يذنب ثُمَّ يقوم فيتظاهر ثم يصلى ركعتين ثُمَّ يستغفر الله إِلَّا غفر الله له) أخرجه أصحاب السنن

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفك حلة، ثم عمل أخرى فانفك الأخرى حتى يخرج إلى الأرض) صحيح الجامع

وفي الحديث القدسي: (يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهر وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم) رواه مسلم

لكن احذر يا أيها النادم النائب ، فإنه لا بطاله مع التوبة ، ولا قعود ولا كسل مع التوبة، فلابد للتوبة كي تكتمل من عمل صالح، فكما أنها ترك لما يكره سبحانه فإنها فعل لما يحب سبحانه، وكما أنها تخل عن معصية فإنها تحل بطااعة.

قال الإمام ابن القيم أن أحد الصالحين كان يسير في بعض الطرقات، فرأى باباً قد فتح وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه، ودخلت فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزيناً، فوجد الباب مغلقاً فتوسد، ووضع خده على عتبة الباب ونام ودموعه على خديه، فخرجت أمه بعد حين، فلما رأته على تلك الحال لم تملك إلا أن رمت نفسها عليه والتزمته تقبلاً وتبكي وتقول: يا ولدي أين ذهبت عني؟ ومن يؤويك سوأي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني؟ ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جئت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت، فتأمل قول الأم... وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم: (للله أرحم بعباده من الوالدة بولدها) رواه مسلم، وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟!

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة، فإذا تاب عليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولي به.

فإذا هداك الله إلى توبة قلبية ملخصة ، فاحذر الذنوب ، واحذر أن تحرق بنارها مرة أخرى ، وإذا ما زلت بك قدمك فسارع بالاستغفار فوراً ، وبالعمل الصالح ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم " واتبع السائئة الحسنة تمها " ..

المسلم

المصادر: